افاميا (قلعة المضيق ـ حماه)

تنقيبات البعثة البلجيكيّة

جان شارل بالتي

تعريب وتلخيص نسيب صليبي

عند طرف المنحدر توضعت مدينة افاميا اليونانية الرومانية وقد تعاقب على الموقع في عهد البالوليتي الوسيط (حول ٣٢٠٠٠ ـ ٥٠٠٠٠ ق.م) مواقع عديدة تضم الكثير من القطع الصوانية المعروفة بالعهد (اللفوازي) وهذه تشير الى اقدم سكن للانسان الذي تأكد على مرور الزمن، وفي العصر الحجري تراكمت ارض السكن لتشكل نواة الاكروبول، والتل ومن النماذج الصوانية الملتقطة كانت (المقاشط، والمثاقب، والمناجل) وغير ذلك من الادوات التي توحي بأنه كان من خاصة انسان ذلك العهد الزراعة حيث درست هذه المعطيات منذ ان قامت البعثة البلجيكية في عام ١٩٦٦ بتنقيباتها. والحقبة هذه تمد مابين العهد النيوليتي والبرونز الوسيط التي صادفناها في بعض الاسبار الجارية مابين عام ١٩٧٠ ـ ١٩٧٤ ومنها طبقة فخار العبيد (العبيد الشمالي المتأخر) واواني القبور التي تعود الى عصر البرونز القديم ٣٠٠٠ ـ ٢٥٠٠ ق.م (المخطط ١) ولوحظ تعاقب ملحوظ في المخازن المستديرة والبيوت البسيطة، المنتمية الى البرونز الوسيط. ان تاريخ الالف الثاني والنصف الاول من الالف الاول ظاهرين من الناحية الاثرية وتؤكدهم النصوص المصرية، والاكادية، والحثية المعطوفين على (نجا) منذ القرن السادس عشر، والخامس عشر، والرابع عشر وتنير لنا كثيراً من المعرفة عن الموقع بالاضافة لكتابة (اوهيلينا) العائدة الى اواسط القرن التاسع والمكتشفة عام ١٩٣٨ والمحفوظة حالياً في متحف حلب.

هذا ومنذ ان قام سلوقس نيكاتور (٢٩٩ ـ ٣٠٠) ق.م بتأسيس المدينة باسم (ابامبا) كان من المأمول ازدهارها وتوسعها والبقايا الهيلينستية الممثلة باسوارها بقية ظاهرة حتى يومنا هذا رغم الهزات الارضية التي اصابتها عام ١١٥م حيث اعيد بناؤها في القرن الثاني للميلاد بشكل عام على اثر التهدم من جراء الهزة الآنفة الذكر.

الى جانب اعمال الترميم المبسطة التي تقوم بها المديرية العامة للآثار والمتاحف بمواقع مختلفة من الشارع الرئيسي المعمد نقبت البعثة البلجيكية في كل من المواقع التالية، الاغورا، المسرح، والسقاية، المتواجدين على مقربة من المحاور الرئيسية للمدينة وتم بناؤهم في فترة ازدهار المدينة خلال عصر انطونان، ان الاغورا ومعبد الاله (زيوس بولوس) اله الصاعقة الذي قاد الامبراطور سبتيموس سفير الى الوصول لرأس الامبراطورية. وتقدر مساحة المدينة بسبعة هكتارات ونصف غير ان المسرح يعتبر من أكبر المسارح المعروفة في العالم الروماني حيث بلغ قطره ١٣٩ متراً. والمقابر المحيطة بالمدينة تمتد الى

عدة كيلومترات عثرنا على كتابات في الوادي والسفوح المجاورة لها (الشكل رقم ١).

ولكن البيوت السكنية كانت مغفلة من قبل المنقبين الاوائل وهذا ماقاد البعثة الى وضع برنامج منذ عشرة سنوات للكشف عن بعض الاحياء السكنية على ضوء الاسبار الاولية المهملة.

الحي الاول الذي كشف عنه يقع شمالي الكاتدرائية، والثاني مابين الكاتدرائية والشارع المعمد، والثالث قرب المدخل الشمالي للاغوار، والرابع غير بعيد عن القناة ويقع قرب الزاوية الشمالية الشرقية للمدينة، واسفرت اعمال الكشف هذه عن اظهار عشرة بيوت عرفناها بالاسماء التالية:

البيت ذو الحوامل، بيت الكراسي، بيت الكتابات العربية، بيت التيجان والحوامل، بيت الوعول، بيت ذو الطراز الدوري، بيت الاعمدة المزدوجة، بيت الاعمدة الثلاثية، بيت القناة.

وأكدت لنا الدراسة ان البيوت هذه بنيت في القرن الثاني للميلاد على ضوء مخطط تنظيمي للمدينة وظلت مسكونة حتى حدوث الهزة الارضية التي اصابت المدينة في القرون الوسطى (١١٥٧ - ١١٧٠) ومن جراؤ ها اخذ السكان الالتجاء والتجمع في قلعة المدينة أو الاكروبول الذي اعيد بناؤ ها بعد الهزة الارضية التي اصابتها مابين عام ٥٢٦ - ٥٢٨ ق.م ومن جراء ماتقدم صادفت المدينة تغيرات عديدة بعد الفتوحات العربية ولكن بقايا البيوت السالف ذكرها ساعدت على اعطاء فكرة واضحة عن وحدتها المعمارية (المخطط ٢) التي تتلخص بمدخل مزخرف ضمن واجهة من حجارة كبيرة (الشكل ٢) ينفذ منه الى داخل البيت ذو الباحة المعمدة مستطيلة حيناً ومربعة حين آخر تحيط غرف الطابق الارضي المؤلفة من قاعة للاستقبال كبيرة يقابلها غرفة الطعام التي عثر ضمنها على طاولة رخامية في بيت الوعول المذكور سالفاً وقد تراوحت مساحات هذه الدور مابين ٢٠٠٠ متراً مربعاً و ٤٥٠٠ الى ٥٠٠٠ متراً مربعاً والمساحات الاخيرة كانت للارستقراطيين من حكام المدينة ويتراوح تاريخها مابين القرن الثاني واواخر عصر الامبراطورية واضمحل ازدهارها بعد الفتح لغياب المناطق المجاورة التي كانت تمنحها الثروة اللازمة للاستمرارية. وغالبية هذه البيوت جزئت الى مساحات أقل للتوافق مع المجتمع الجديد مختلفة تماماً عن تكوينها الاصلي واصبحت للسكان القادمين من الريف الى المدينة واستمرت حياتها حتى القرن العاشر والحادي عشر الميلادي واخذت طابعها الريفي للعثور على تنانير وحواصل للماء ضمن الباحة وحولها بعض الغرف المتداعية واهملت كلياً الغرف العلوية.

ان الابدة التي اطلقنا عليها اسم الاجنحة الثلاثية (تركلينوس) (المخطط ٣) كانت لحاكم المدينة الذي مارس عمله منذ القرن الخامس الميلادي وتحولت في القرون الوسطى الى اسواق ومشاغل على طول الشارع الرئيسي. (الشكل ٣)

هناك قلة من الدور المعاد بناؤ ها للمرة الاخيرة في القرون الاولى للاسلام وخاصة البيت ذو الباحة (الدورية) حيث نظمت بعض المساحات واعيدت له اعمدته فضلا على اعادة بناء جدرانه من اساساتها، وفرشت الارض بالبلاطات المنتظمة، واعيدت بعض الادراج في الاروقة، وصورت بعض القاعات الى زرائب، كما شوهدت كثيراً من العناصر المعاد استخدامها مثل الاعمدة، والتيجان، والبلاط الرخامي المخصص هذا الاخير لتجميل بعض الغرف خلال عملية التحويل وغالب الظن انه خصص للحاكم الجديد في المدينة الذي بدوره يحتاج الى بناء يضم بعض مظاهر الترف.

ظهرت المسيحية في عصر مبكر في افاميا ولم تتطور الا بعد ان جرى هدم معبد (ذيوس) من قبل

المطران مارسل حول عام ٣٨٤ ـ ٣٨٥ .

ومع الاستقرار التي نعمت به سورية في القرن الخامس للميلاد واصبحت من المواقع لمركز البطريركية . تضاعفت بها عدد الكنائس . اكتشف منها حتى الآن ثمانية ، ثلاثة منها اكتشفت في الثلاثينات ، وتوسع العمل بها مابين عام (١٩٦٦ ـ ١٩٧٥) حتى اصبح من الممكن تأريخها .

ان الكاتدرائية (المخطط ٤) المبنية فوق بقايا المدرسة الفلسفية ضمت مجموعة كبيرة من لوحات الفسيفساء (الشكل ٤) تم العثور عليها مابين عام ١٩٣٧ حتى ١٩٧٢ بالاضافة لارض مفروشة بالنوع ، المشقف ،(الشكل ٥) واربعة نصوص تؤكد تحويلها حول عام ٥٣٥م مباشرةً بعد الهزة الارضية الواقعة في مطلع حكم جوستينيان ، من خصائصها الفريدة مبنيين للمعمودية فريدين ومبان اخرى تحيط بها مثل (المصلى ـ ومصلى خاص بالطقوس الجنائزية ، وحمام وموقع سكن الخ . . .) متجمعة حول باحة داخلية توحي بمجموعة معمارية دينية . بخلاف لمدينة جرش . لم يعرف الشرق أمثلة اخرى ومن هنا تأتي اهميتها الفريدة .

وكانت الكنيسة ذات الردهة متواضعة في الاصل وظلت أعمال التوسع مستمرة فيها حتى القرن السادس مع التطور الذي تم لكنائس الشهداء مثل (القديسين كوسم ودميان والقديس تيودور) حيث عثر منذ عام ١٩٣٤ على صناديق ذخائرهم . والكنيسة ذات المخطط المستدير من القرن السادس هي الاخرى تعتبر فريدة في مخططها (مثل كنيسة العذراء في بيسان) ولكنها متهدمة وتضع الاثريين والمهندسين بحيرة حول تغطية فسحتها الوسطية ، البالغ قطرها خمسة وعشرون متراً .

ويعود تاريخ (الترابلين) المكتشفين حديثاً الى الفترة اللاحقة من التنظيم الجديد للمدينة بعد الهزة الارضية الواقعة في عام ٥٢٦ ـ ٥٢٨ والذي يزين احدهم الشارع المعمد في جنوب مجموعة الاعمدة المسيخة ، والثاني عند طرف الكاتدرائية الواقعة على الشارع العرضي . وقرب هذه الاخيرة شيد في العصر البيزنطي بعض المنشآت التي تشير الى ازدهار المدينة في هذه الفترة .

هذا واهمل الموقع الذي يقوم فوقه (معبد زيوس ، والاغورا) وتعرض لبعض التعديلات حيث اعيد تبليط الشارع المعمد ببلاط اهليلجي الشكل ووضع له رصيف مزدوج كما اعيد استخدام الاروقة قرب الاغورا وسدت بعض الاقسام بجدران لحواصل كبيرة وذلك بعد غزو المدينة من قبل فرسان (اندرمانس) الفارسي عام (٥٧٣) وتوضع في بعض الاماكن ركام ضم مجموعة كبيرة من الفخار المتنوع الاشكال . وتنقيباتنا لهذه المواقع خلال الاعوام (١٩٧٦ ـ ١٩٨١ ـ ١٩٨٣) زودتنا بكثير من المعلومات حول اواني العصر البيزنطي مثل (الفخار الاحمر سيجيلية) والفخار المحلي ، والمستورد ، واواني فخارية معرضة للحرارة وفخار عادي ، وزجاج ، بالاضافة للسرج الفخارية) ادت دراساتها ودراسة النقود الى معرفة تطور الصناعة في سورية الشمالية .

وبعد الفتوحات العربية ظلت الحياة مستمرة في المدينة حتى القرن العاشر وتبعثرت مابين القرن الثاني عشر والرابع عشر ، والفخار والنقود المكتشفة ضمن البيوت المتهدمة على الصعيد المعماري ذودتنا بمعلومات هامة حول الفترة الاخيرة من تاريخ المدينة عندما اخذ السكان قبيل هذه الفترة في اللجوء الى الاكروبول أو المرتفع الذي تشكله القلعة حالياً والتي تضيق بكثرة سكانها .

★ يرجى الرجوع الى المقال المنشور بالقسم الاجنبي للاطلاع على المخططات والرسوم

المعرب